حديث المنزلة الأسانيد . . والشبهات

<"xml encoding="UTF-8?>

حديث المنزلة

الأسانيد . . والشبهات *

الشيخ مكارم الشيرازي

أسانيد حديث المنزلة :

1 ـ روى جمع كبير من صحابة النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) حول غزوة تبوك : أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) خرج إلى تبوك واستخلف عليّاً ، فقال : (أَتَخْلِفُنِي فِي الصِبْيَانِ وَالنِسَاءِ ؟) .

قال : (أَلاَ تَرْضَى أَنْ تكونَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى ، إلاّ أَنّه ليسَ نَبِيٌّ بَعْدِي) .

وهذا النص ورد في أوثق الكتب الحديثيّة لدى أهل السنّة ، يعني صحيح البخاري وعن سعد بن أبي وقاص (1) .

وقد رُوي هذا الحديث ـ أيضاً ـ في صحيح مسلم الذي يُعدّ من المصادر الرئيسية عن أهل السُنّة ، في باب (فضائل الصحابة) عن سعد أن النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال لعلي (عليه السلام) : (أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى إلاّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي) (2) .

في هذا الحديث الذي نقله صحيح مسلم أعلن عن الموضوع بصورة كلّيّة ، ولم يرد فيه ذكر عن غزوة تبوك .

وهكذا نُقل حديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) هذا في سياق ذِكْر غزوة تبوك بعد ذِكْر الحديث بصورة كلّيّة ، بصورة مستقلّة ، كما جاء في صحيح البخاري .

وقد ورد عين هذا الموضوع في سنن ابن ماجه أيضاً (3) .

وقد أُضيف في سنن الترمذي مطلب آخر ، وهو أنّ معاوية قال لسعد ذات يوم : ما يمنعك أنْ تسبَّ أبا تراب ؟!

قال : أمّا ما ذكرتَ ، ثلاثاً قالهنَّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فلنْ أسبَّه ، لَئِن تكون لي واحدة منهنّ ، أحبّ إليّ من حُمْرِ النَعَم . ثمّ عَدّد الأُمور الثلاثة ، فكان أحدها ما قاله رسول الله لعلي في تبوك وهو قوله : (أَمَا تَرْضَى أَنْ تكونَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى إلاّ أَنَّهُ لا نُبُوّةَ بَعْدِي) (4) .

وقد أُشير إلى هذا الحديث في عشرة موارد من مسند أحمد بن حنبل ، تارةً ذكرتْ فيه غزوة تبوك ، وتارةً من دون ذِكْر غزوة تبوك ، بل بصورة كلّيّة (5) .

وقد رُوي في أحد هذه المواضع أنّه أتى ابن عبّاس ـ بينما هو جالس ـ تسعةُ رَهْطٍ ، فقالوا : يا ابن عبّاس ، إمّا أنْ تقوم معنا ، وإمّا أنْ تخلونا هؤلاء .

فقال ابن عباس : بل أقوم معكم .

(إلى أنْ قال) : وخرج بالناس (أي النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)) في غزوة تبوك ، ثمّ نقل كلام رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لعلي (عليه السلام) وأضاف : (إنّه لا ينبغي أنْ أَذْهبَ إلاّ وأنتَ خَلِيْفَتِي) (6) .

وجاء نفس هذا الحديث في (خصائص النسائي) (7) وهكذا في مستدرك الحاكم (8) ، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي (9) وفي الصواعق المحرقة لابن حجر (10) وسيرة ابن هشام (11) والسيرة الحلبيّة (12) وكتب كثيرة أُخرى .

ونحن نعلم أنّ هذه الكتب من الكتب المعروفة ، والمصادر الأُولى لأهل السُنّة .

والجدير بالذكر أنّ هذا الحديث لم يَرْوِهِ (سعد بن أبي وقاص) عن النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وحده ، بل رواه ـ أيضاً ـ مجموعةٌ كبيرة من الصحابة الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصاً ، منهم :

(جابر بن عبد الله) و (أبو سعيد الخدري) و (أسماء بنت عُمَيْس) و (ابن عبّاس) و (أُمّ سَلَمَة) و (عبد الله بن مسعود) و (أنس بن مالك) و (زيد بن أرقم) و (أبو أيّوب) ، والأجدر بالذكر أنّ هذا الحديث رواه عن النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) (معاوية بن أبي سفيان) و (عمر بن الخطّاب) أيضاً .

وينقل (محبّ الدين الطبري) في (ذخائر العقبى) أنّه جاء رجل إلى معاوية فسأله عن مسألة .

فقال : سَلْ عنها عليَّ بن أبي طالب ، فهو أعلم .

قال : يا أمير المؤمنين (ويقصد به معاوية) ، جوابك فيها أحبّ إليّ من جواب عليّ .

قال : بئسما قلتَ ، لقد كرهتَ رجلاً كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يغرّه بالعلم غَرّاً ، وقد قال له : أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى ، إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي ، وكان عمر إذا أشكل عليه أخذ منه (13) .

وروى أبو بكر البغدادي في (تاريخ بغداد) ، بسنده عن عمر بن الخطّاب أنّه رأى رجلاً يسبّ عليّاً (عليه السلام) ، فقال : إنّي أظنّك منافقاً ، سمعتُ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يقول : (إنّما عليّ منّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى ، إلاّ أَنّه لا نَبِيّ بَعْدِي) (14) .

حديث المنزلة في سبعة مواضع :

النقطة الأُخرى ، إنّ النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ـ وخلافاً لِمَا يتصوّره البعضُ ـ لم يقل هذا البحث في علي (عليه السلام) في غزوة تبوك فقط ، بل قال هذه العبارة في عدّة مواضع منها :

1 ـ في المؤاخاة الأُولى :

يعني في المرّة الأُولى التي آخى فيها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بين المهاجرين ، واختار عليّاً (عليه السلام) في هذه المؤاخاة لنفسه ، وقال : (أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى إلاّ أنّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي) (15) .

2 ـ في يوم المؤاخاة الثّانية :

وكانت في المدينة بعد الهجرة بخمسة أشهر ، حيث آخى بين المهاجرين والأنصار ، واصطفى لنفسه منهم عليّاً ، واتّخذَهُ من دونهم أخاه ، وقال له : (أنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى إلاّ أنّهُ لا نَبِيَّ بِعْدِي ، وأنتَ أخي ووارثي) (16) .

3 ـ أُمّ سليم :

التي كانت على جانب من الفضل والعقل ، وكانت تُعدّ من أهل السوابق ، وهي من الدعاة إلى الإسلام ، واستشهد أبوها وأخوها بين يدي النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، وفارقتْ زوجها ؛ لأنّه أبى أنْ يعتنق الإسلام ، وكان رسولُ الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يزورها في بيتها بين الحين والآخر ويسلّيها ، تروي أُمُّ سليم هذه أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال لها ذات يوم : (إنّ عليّاً لَحْمُهُ مِن لَحْمِي ، وَدَمُهُ مِنْ دَمِي ، وهو مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى) (17) .

4 ـ قال ابن عبّاس :

سمعتُ عمر بن الخطّاب يقول : كُفُّوا عن ذِكْر عليّ بن أبي طالب ، فقد رأيتُ مِن رسولِ الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فيه خصالاً ، لَئِنْ تكون لي واحدة منهنّ في آل الخطّاب أحبَّ إلي ممّا طلعت عليه الشمس ، كنتُ أنا ، وأبو بكر ، وأبو عبيدة ، في نفرٍ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فانتهينا إلى باب أُمِّ سَلَمَة ، وعلي قائم على الباب ، فقلنا :

أردنا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ؟

فقال : يخرج إليكم ، فخرج رسولُ الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فَسِرْنا إليه ، فأتَّكَأَ على عليّ بن أبي طالب ، ثمّ ضرب بيده منكبه ، ثمّ قال : (أنت (يا علي) أوّل المؤمنين إيماناً ، وأوّلهم إسلاماً ، وأنتَ مِنّي بمنزلةِ هارونَ مِن موسى) (18) .

5 ـ روى النسائي في كتاب (الخصائص) :

أنّ عليّاً وزيداً وجعفر اختصموا في مَن يكفل ابنةَ حمزة ، وكان كلُّ واحدٍ منهم يريد أنْ يكفلها هو دون غيره ، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لعلى : (أنتَ مِنّيّ بمنزلةِ هارونَ من موسى) (19) .

6 ـ روى جابر بن عبد الله :

أنّه عندما أمر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بسدّ جميع أبواب المنازل التي كانت مشرعةً إلى المسجد ، إلاّ باب بيت علي (عليه السلام) ، قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : (إنّه يحلّ لك في المسجدِ مَا

يَحلّ لِي ، وإنّك بمنزلةِ هارونَ مِن موسى ، إلاّ أنّهُ لا نبيَّ بَعْدِي) (20) .

هذه الموارد الستّة التي هي غير غزوة تبوك ، أخذناها برمّتها من المصادر المعروفة لأهل السنّة ، وإلاّ فإنّ هناك في الرّوايات المرويّة عن طريق الشيعة موارد أُخرى قال فيها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) هذه العبارة في شأن علي (عليه السلام) أيضاً .

من مجموع ذلك يُستفاد ـ بوضوح وجلاء ـ أنّ حديث المنزلة لم يكنْ مختصّاً بغزوة تبوك ، بل هو أمر عام ودائم في شأن علي (عليه السلام) .

ومِن هنا يتّضح أيضاً أنّ ما تصوّره بعضُ علماء السنّة مثل (الآمدي) ـ مِن أَنّ هذا الحديث يتكفّل حكماً خاصّاً في مجال خلافة علي (عليه السلام) ، وأنّه يرتبط بظرف غزوة تبوك خاصّةً ، ولا يرتبط بغيره من الظروف والأوقات ـ تصوّرٌ باطلٌ أساساً ؛ لأنّ النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كرّر هذه العبارة في مناسبات متنوّعة ، ممّا يفيد أنّه كان حكماً عامّاً .

محتوى حديث المنزلة :

لو درسنا ـ بموضوعيّة وتجرّد ـ هذا الحديث ، وتجنَّبْنا الأحكام المسبَّقة والتحجّجات الناشئة من العصبيّة ، لاستفدنا من هذا الحديث أنّ عليّاً (عليه السلام) كان له ـ بموجب هذا الحديث ـ جميع المنازل التي كانت لهارون في بني إسرائيل إلاّ النّبوة ؛ لأنّ لفظ الحديث عام ، والاستثناء (إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي) يؤكّد هو الآخر هذه العموميّة ، ولا يوجد أيّ قيدٍ أو شرطٍ في هذا الحديث يخصّصه ويقيّده .

وعلى هذا الأساس يمكن أنْ يستفاد من هذا الحديث الأُمور التالية :

1 ـ إنّ الإمام عليّاً (عليه السلام) أفضلُ الأئمّة بعد النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، كما كان لهارون مثل هذا المقام .

2 ـ إنّ عليّاً وزيرُ النبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ومعاونه الخاص وعضده ، وشريكه في قيادته ؛ لأنّ القرآن أثبت جميع هذه المناصب لهارون عندما يقول حاكياً عن موسى قوله : (وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) (21) .

3 ـ إنّه كان لعليّ (عليه السلام) ـ مضافاً إلى الأخوّة الإسلامية العامّة ـ مقامُ الأخوّة الخاصّة والمعنويّة للنبيّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) .

4 ـ إنّ عليّاً (عليه السلام) كان خليفةَ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، ومع وجوده لم يكن أيّ شخص آخر يصلح لهذا المنصب .

* * * *

أسئلة حول حديث المنزلة :

لقد أورد بعض المتعصّبين إشكالات واعتراضات على هذا الحديث والتمسّك به ؛ لإثبات خلافة علي لرسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بلا فصل .

بعض الإشكالات والاعتراضات واهية جدّاً ، إلى درجة لا تَصلح للطرح على بساط المناقشة ، بل لا يملك المرء عند السماع بها إلاّ أنْ يتأسّف على حال البعض كيف صدّتْهم الأحكام المسبقة غير المدروسة عن قبول الحقائق الواضحة ؟

أمّا البعض الآخر من الإشكالات القابلة للمناقشة والدراسة ، فنطرحها على بساط البحث تكميلاً لهذه الدراسة :

* الإشكال الأوّل :

إنّ هذا الحديث يبيّن ـ فقط ـ حكماً خاصّاً محدوداً ؛ لأنّه ورد في غزوة تبوك ، وذلك عندما انزعج علي (عليه السلام) من استبقائه في المدينة بين النساء والصبيان ، فسلاّه رسولُ الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بهذه العبارة ، وعلى هذا الأساس كان المقصود هو : إنّك وحدك الحاكم والقائد لهذه النسوة والصبيان دون غيرك .

وقد اتّضح الجواب على هذا الإشكال من الأبحاث السابقة بجلاء ، وتبيّن أنّه ـ على خلاف تصوّر المعترضين ـ لم يرد هذا الحديث في واقعة واحدة ، ولم يصدر في واقعة تبوك فقط ، بل صدر في موارد عديدة على أساس كونه يتكفّل حكماً كليّاً ، وقد أشرنا إلى سبعة موارد ومواضع منها ، مع ذكر أسانيدها من مؤلّفات علماء أهل السُنّة .

هذا مضافاً إلى أنّ بقاء عليّ (عليه السلام) في المدينة لم يكن أمراً بسيطاً يهدف المحافظة على النساء والصبيان فقط ، بل لو كان الهدف هو هذا ، لتيّسر للآخرين القيام به ، وإنّ النّبي لم يكن ليترك بطل جيشه البارز في المدينة لهدف صغير ، وهو يتوجّه إلى قتال إمبراطورية كبرى (هي إمبراطورية الروم الشرقية) .

إنّ من الواضح أنّ الهدف كان هو منع أعداء الرسالة الكثيرين الساكنين في أطراف المدينة والمنافقين القاطنين في نفس المدينة ، الذين كانوا يفكّرون في استغلال غيبة النّبي الطويلة لاجتياح المدينة قاعدة الإسلام ؛ ولهذا عَمَدَ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) إلى أنْ يخلف في غيبته شخصيّةً قويّةً ، يمكنه أنْ يحفظ هذا المركز الحسّاس ، ولم تكن هذه الشخصية سوى علي (عليه السلام) .

* الإشكال الثّاني :

نحن نعلم ـ كما اشتهر في كتب التاريخ أيضاً ـ أنّ هارون تُوفّي في عصر موسى (عليه السلام) نفسه ؛ ولهذا لا يُثبِت التشبيه بهارون أنّ عليّاً (عليه السلام) خليفة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بعد وفاته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) .

ولعلّ هذا هو أهمّ إشكال أُورد على هذا البحث والتمسّك به ، ولكنّ جملة (إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي) تُجيب على هذا الإشكال بوضوح ؛ لأنّه إذا كان كلام النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ـ الذي يقول : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ـ خاصّاً بزمان حياة النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لَمَا كانت هناك ضرورة إلى جملة (إلاّ أنّه لا نبي بعدي) ؛ لأنّه إذا اختصّ هذا الكلام بزمان حياة النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لكان التحدّث حول مَن يأتي

بعده غير مناسب أبداً (إذ يكون لهذا الاستثناء ـ كما اصطلح في العربية ـ طابع الاستثناء المنقطع الذي هو خلاف الظاهر) .

وعلى هذا الأساس يكشف وجود هذا الاستثناء ـ بجلاء ـ أنّ كلام النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ناظر إلى مرحلة ما بعد وفاته ، غاية ما هنالك ولكي لا يلتبس الأمر ، ولا يعتبر أحدٌ عليّاً (عليه السلام) نبيّاً بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال : إنّ لك جميع هذه المنازل ولكنّك لن تكون نبيّاً بعدي .

فيكون مفهوم كلام النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) هو أنّ لك جميع ما لِهارون من المناصب والمنازل ، لا في حياتي فقط ، بل إنّ هذه المنازل تظلّ مستمرّةً وباقية لك إلاّ مقام النّبوة .

وبهذه الطريقة يتّضح أنّ تشبيه علي (عليه السلام) بهارون ، إنّما هو من حيث المنازل والمناصب ، لا من حيث مدّة استمرار هذه المنازل والمناصب ، ولو أنّ هارون كان يبقى حيّاً ، لكان يتمتّع بمقام الخلافة لموسى ومقام النّبوة معاً .

ومع ملاحظة أنّ هارون كان له ـ حسب صريح القرآن ـ مقام الوزارة والمعاونة لموسى ، وكذا مقام الشركة في أمر القيادة (تحت إشراف موسى) ، كما أنّه كان نبيّاً ، تثبت جميع هذه المنازل لعلي (عليه السلام) إلاّ النّبوة ، حتى بعد وفاة النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بشهادة عبارة (إلاّ أنّه لا نبي بعدي) .

* الإشكال الثّالث :

إنّ الاستدلال بهذا الحديث يستلزم أنّه كان لعلي (عليه السلام) منصب الولاية والقيادة حتى في زمن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ، في حين لا يمكن أنْ يكون هناك إمامان وقائدان في عصر واحد .

ولكن مع الالتفات إلى النقطة التالية يتّضح الجواب على هذا الإشكال أيضاً ، وهي أنّ هارون كان له ـ من دون شكّ ـ مقام قيادة بني إسرائيل حتى في عصر موسى (عليه السلام) ، ولكن لا بقيادة مستقلّة ، بل كان قائداً يقوم بممارسة وظائفه تحت إشراف موسى . وقد كان علي (عليه السلام) في زمان النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) معاوناً للنّبي في قيادة الأُمّة أيضاً ، وعلى هذا الأساس يصير قائداً مستقلاً بعد وفاة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) .

وعلى كل حال ، فإنّ حديث المنزلة الذي هو مِن حيث الأسانيد مِن أقوى الأحاديث والروايات الإسلامية التي وردتْ في مؤلّفات جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء ، إنّ هذا الحديث يوضّح لأهل الإنصاف من حيث الدلالة أفضليّةَ علي (عليه السلام) على الأُمّة جمعاء ، وأيضاً خلافته المباشرة (وبلا فصل) بعد رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) .

ولكن مع العجب العجاب أنّ البعض لم يكتفِ برفض دلالة الحديث على الخلافة ، بل قال : إنّه لا يتضمّن ولا يثبت أدنى فضيلة لعليّ (عليه السلام) .. وهذا حقّاً أمر محيّر .

* اقتباس وتنسيق : قسم المقالات في شبكة الإمامين الحسنَين (عليهما السلام) من كتاب : الأَمْثَل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل (طبعة جديدة منقّحة مع إضافات) ، تَأليف : العلاّمة الفقيه المفسّر آية الله العظمى الشَيخ نَاصِر مَكارم الشِيرازي ، المجَلّد الخامس .

1 ـ صحيح البخاري : الجزء السّادس ، الصفحة 3 ، طبعة دار إحياء التراث العربي .

2 ـ صحيح مسلم : المجلّد الرّابع ، الصفحة 187 ، طبعة دار إحياء التراث العربي .

3 ـ المجلد الأوّل ، الصفحة 43 ، طبعة دار إحياء الكتب العربية .

4 ـ المجلد الخامس ، الصفحة 638 ، طبعة المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ .

5 ـ مسند أحمد بن حنبل : المجلّد الأول ، الصفحة 173 و 175 و 177 و 179 و 183 و 185 و 231 ، والمجلّد السّادس ، الصفحة 369 و 438 .

6 ـ مسند أحمد : المجلّد الأوّل ، الصفحة 231 .

7 ـ خصائص النسائي : ص 4 و 14 .

8 ـ المجلّد الثالث ، الصفحة 108 و 109 .

9 ـ المجلّد الأوّل ، الصفحة 65 .

10 ـ الصفحة 177 .

11 ـ السيرة النبوية : المجلّد الثّالث ، الصفحة 163 ، طبعة مصر .

12 ـ السيرة الحلبية : المجلّد الثّالث ، الصفحة 151 ، طبعة مصر .

13 ـ ذخائر العقبى : الصفحة 79 ، طبعة مكتبة القدس . الصواعق المحرقة : ص 177 ، طبعة مكتبة القاهرة .

14 ـ تاريخ بغداد : المجلّد السابع ، الصفحة 452 ، طبعة السعادة .

15 ـ كنز العمّال : المجلّد الخامس ، الصفحة 40 ، الحديث 918 ، والمجلّد السّادس ، الصفحة 390 .

16ـ منتخب كنز العمّال (في حاشية مسند أحمد) : المجلّد الخامس ، من مسند أحمد ، الصفحة 31 .

17 ـ كنز العمّال : المجلّد السّادس ، الصفحة 164 .

18 ـ كنز العمّال : المجلّد السّادس ، الصفحة 395 .

19 ـ خصائص النسائي : الصفحة 19 .

20 ـ ينابيع المودّة : آخر باب 17 ، الصفحة 88 ، الطبعة الثّانية ، دار الكتب العراقية .

21 ـ سورة طه : الآية : 29 إلى 32 .